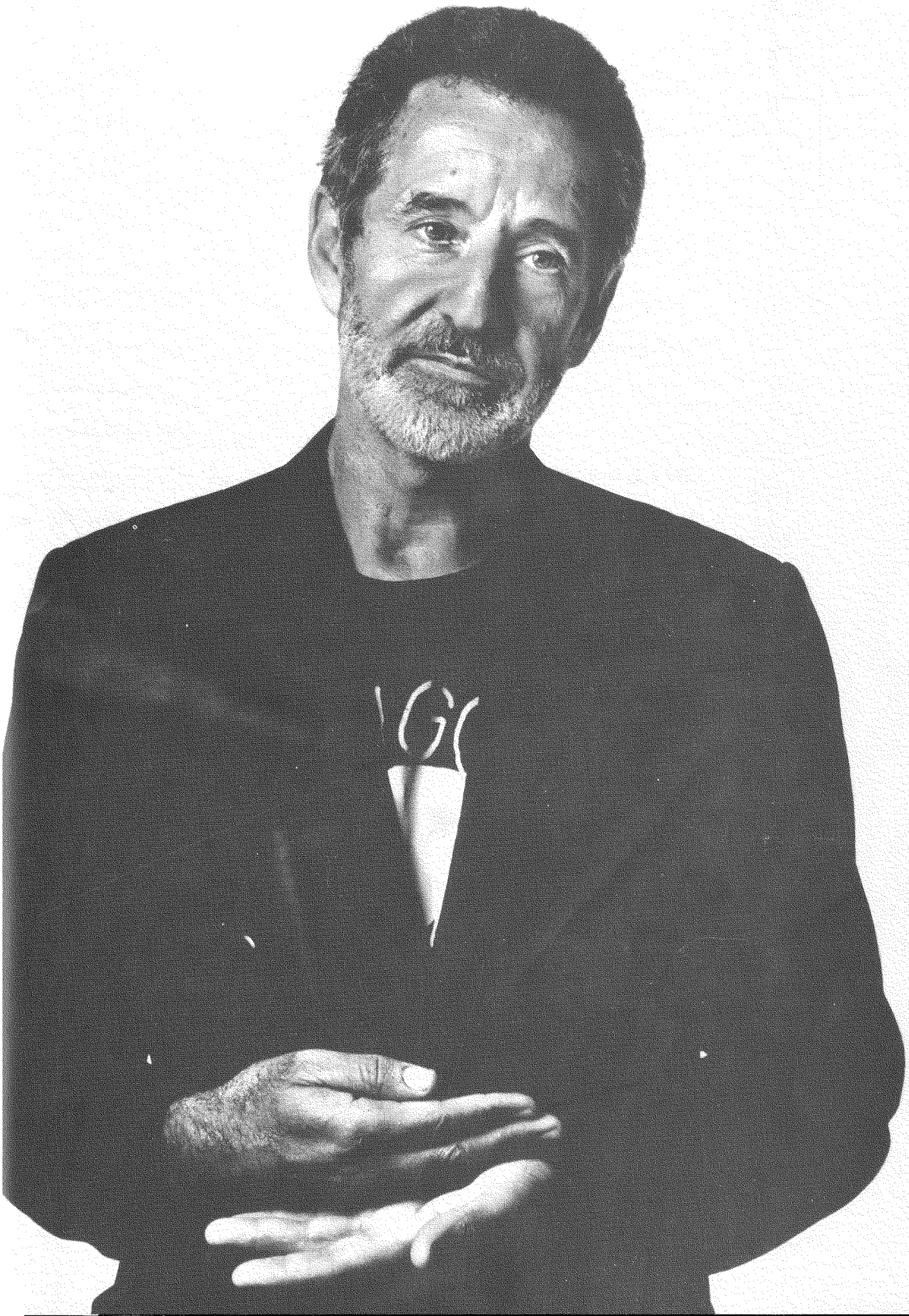

برايتن
برايتنباخ...
يواجه... نلسون مانديلا

تقديم وتعريب: سماح إدريس

رأيتُ أن أُخصّص الحلقة السادسة من «حقّ الاختلاف» لرسالتين بَعَثَ بهما برايتن برايتنباخ Breyten Breytenbach إلى نيلسون مانديلا. الرسالة الأولى مؤرخة في ١٦ نيسان (ابريل) ١٩٩١، أي بعد أكثر من عام على إطلاق سراح مانديلا (في الساعة الرابعة بعد الظهر من ١١ شباط ـ فبراير ـ ١٩٩٠). وقد أثارتْ هذه الرسالةُ موجةَ احتجاج عارمة ولاسيَّما مِن خصم مانديلا، زعيم منظمة الإينكاثا؛ كما حاول بعضُ «الطامحين» أن يؤوِّلوا الرسالة على غير محملها، فاضطُرّ برايتنباخ إلى توجيه كتابٍ إلى مانديلا بعد حوالي شهر ونصف من رسالته الأولى، يوضح فيها «ولاءَه النقديّ» لقضية المؤتمر الوطني الأفريقي برغم تحفظاته على سلوك هذا المؤتمر ونهجه «اللاديموقراطي».

وأمّا الرسالة الثانية فقد بعثها برايتنباخ عَقِبَ صيرورة مانديلا رئيساً لجمهورية جنوبي أفريقيا، وَأدائه القَسَمَ الدستوريّ، وتشكيلِهِ حُكومةً تعدّديةً هي الأولى في تاريخ هذه البلاد. وقد جاءت هذه الرسالة استجابةً لدعوة مانديلا مواطنيه إلى المشاركة في بناء «سقالات برج بابلٍ مختلفٍ» على أنقاض حكمِ التفرقة العنصرية (الاپارتايد) البغيض.

***

يُعتبر برايتنباخ أشهرَ كاتبٍ باللغة الأفريقانيّة، والمفارقة اللاذعة هي أنه يُعتبر أيضاً أشهر الأقلام «البيضاء» معارضةً للحكم العنصري الأفريقاني. وأوّلُ تحرُّكٍ قام به للتعبير عن معارضته هذه كان عامَ ١٩٥٨، حين اشترك ـ وهو في العشرين ـ في الاعتصامات في جامعة كايپ تاون ضدّ سياسة «الحزب الوطني» الحاكم التي قضتْ باستبعاد كلّ السود من المعاهد ذاتِ الأغلبية البيضاء (وكان هؤلاء يشكّلون ١٢٪ منَ الجسم الطلاّبي في الجامعة المذكورة)، و«زاره» إثرها رجالُ البوليس غير مَرّةٍ في منزله! لكنَّ نداء السَّفَر ألحَّ عليه، فقطع دراسته، وسافر إلى فرنسا في شتاء ١٩٦١.

ولم يَكد يَمْضي عامانِ على إقامته في باريس حتى تعرَّف إلى فتاة ڤيتناميّةٍ اسمها «يولاند»،

فتزوّجا بعد ثلاثة شهورٍ من لقائهما العاصف، وانتقلا للعيش في شقّةٍ على الضفّة اليسرى، حيث شرع برايتنباخ بالرسم ونَظْم الشعر، ومُنِحَ جائزة قيّمة من جنوبي أفريقيا، فأعدّ العدّة للسَّفَر لتسلّمها، ولكنّه فوجئ بأنّ النظام العنصري الأپارتايدي رفض إعطاء زوجته تأشيرةَ دخول، وذلك بسبب رفضِهِ الاعتراف بزواجهما الهجين (الذي يضرب فكرة النقاء العنصري الأبيض الأفريقاني!). فاستشاط برايتنباخ غيظاً، وكتب رسالةً مفتوحة نَشَرها في جريدةٍ في كايپ تاون عبَّر فيها عن خجله من نظام بلاده، ومن شعبِهِ، وعن رغبته في «التخلّي عن جنسيّته اليوم إن استطاع»! وجعل يصبّ جَامَ غضبه على الأپارتايد في شعره، الذي ـ ويا للمفارقة!ـ راح يكتسب شهرةً متعاظمةً في أوساط الأفريقانيين البيض «الليبراليين» أنفسهم بسبب لغته العالية الإيحاءِ والجمال والحسّيّة والحرّية... غير أنّ المفارقة العظمى تمثّلتْ ـ كما يقول لورنس وَشْلِرْ ـ في أنّ أجمل قصائد الحبّ المكتوبة باللغة الأفريقانيّة إنّما تحتفل بامرأةٍ «ملوّنة» (هي يولاند)؛ وزاد المفارقة شدة أنّ هذه المرأة لم تكن تستطيع أن تقرأها أصلاً[١]!

في باريس، التي تحوّلتْ بطبيعة الحال إلى منفى برايتنباخ (القسري والطّوعي معاً)، أخذ شاعرُنا بالاحتكاك بالناشطين السياسيين المنفيين من جنوبي أفريقيا. وكانت فرنسا تشهد آنذاك مظاهرات الطلبة الشهيرة (١٩٦٨)، وجَعَلَ قطاعٌ متعاظم مِن الراديكاليين يعبِّرون عن سخطهم على سياسة الحزب الشيوعي الفرنسي المؤيِّدة للاجتياح السوڤياتي لتشيكوسلوڤاكيا (في ما عُرِف بـ«ربيع پراغ» ١٩٦٨). ولئن كان الحزبُ الأخيرُ مِنْ أوائل الأحزاب الشيوعية التي جهرتْ بهذا التأييد، فقد كان «الحزب الشيوعي لجنوبي أفريقيا» أوّلَها على **الإطلاق**. والمعلوم أن هذا الحزب الأخير كان يتحكّم آنذاك بماليّة «المؤتمر الوطني الأفريقي» في الخارج، وأَمْنِه، ووسائِل اتصالاته، وبجهازه التنفيذي.

فاعترض برايتنباخ على ستالينية الحزب الشيوعي الأفريقي. كما اعترض على سياسته التدرّجية المرحليّة، وعلى تجاهله للمسألة العرقيّة لصالح التحليل الطبقي الجامد.

غير أنّ جناحاً آخر في «المؤتمر الوطني الأفريقي» راح ينشط بزعامة جوني ماكاثيني. وهذا الجناح ـ الذي عُرف بـ«الجناح الجزائري» ـ تميَّز بكفاحيّته العالية وتركيزه على المنحى العِرْقي باعتبار السُّود هم طليعة النضال للتخلّص من الأپارتايد. واستطاع ماكاثيني تجنيد برايتنباخ عام ١٩٦٩ للعمل في منظمة يسارية سريّة اسمها Solidarité (التضامن) بزعامة هنري كوريل، وهو مصري يهودي شيوعي عريق درَّب برايتنباخ على أساليب المؤامرات والتهريب. وفي غضون ذلك شكّل ماكاثيني تنظيماً سرّياً مؤلفاً من جنوبأفريقيين بيضٍ غير شيوعيين يقطنون في المنفى، وأكّد لهم أنهم يَحْظَوْن بتأييد المؤتمر الوطني الأفريقي[٢].

عام ١٩٧٢ مُنِحتْ «يولاند» تأشيرة دخول إلى جنوبي أفريقيا. فسافر الزوجان، وحظي برايتنباخ باستقبالٍ عارم، ودُعي لإلقاء محاضرة في جامعة كايپ تاون. غير أنّه راح أيضاً يقوم باتصالاتٍ سرّية باسْم تنظيمه السّرّي؛ ولم يخَف ذلك طبعاً على بوليس الدولة العنصرّية.

وتكثّفتْ نشاطاتُ برايتنباخ السياسية بعد عودته إلى باريس. وفي عام ١٩٧٥ كلّفه تنظيمُه بمهمة الذهاب سرّاً إلى جنوبي أفريقيا لتجنيد ناشطيْن محدَّديْن، ولعرض بيان التنظيم على أيّ عُضْوٍ محتمل. فحلق لحيته، وتزوّد بجواز سفرٍ إيطالي مزوّر باسم «كريستيان غالاكسا»، وتوجّه إلى روما، حيث استحصل على تأشيرة دخول إلى جنوب أفريقيا. ولكنّ النظام الأپارتايدي كان على علمٍ بخطّةِ برايتنباخ، فأشْعَرَ سفاراته في العالم (ولاسيّما سفارته في روما) بضرورة تسهيل أمر إعطاء

---

(١) Lawrence Weschler: "An Africaner Dante", **The New Yorker,** Nov.8, 1993, p. 84. ومعظم المعلومات السّيريّة في هذه المقدمة مأخوذة من هذه المقالة الطويلة.

(٢) في **الاعترافات الحقيقية لإرهابي أمهق**، ينفي برايتنباخ أنْ يكون أعضاء المؤتمر المذكور الذين كان على اتصالٍ بهم قد شجّعوا قيامَ مثل ذلك التنظيم باسم «المؤتمر»؛ راجع:
The True Confessions of an Albino Terrorist (San Diego: Harcourt Brace & Company, 1983 p. 389, footnote).

التأشيرة للمدعو «كريستيان غالاكسا»! وقيل بل إنّ برايتنباخ قد ارتكب مِنَ الحماقات في جنوبي أفريقيا ما جعل البوليس يكشف وجودَه فيها. وعلى أيٍّ حال، فقد اتصل برايتنباخ بحوالي أربعين شخصاً. وقبل أن يستقل الطائرة عائداً إلى فرنسا، قُبِضَ عليه بتهمة الإرهاب.

في السجن توالتْ سلسلةُ أحداثٍ دراماتيكيّة صاخبة. فقد أقنَعَ البوليسُ الكاتبَ بالاعتذار أمام المحكمة عن أفعاله «الحمقاء» التي قام بها، ثم اعتذر من رئيس الوزراء «ڤورستر» عن قصيدة قدحيّة كان قد كتبها عنه وإليه(٣)، بل شكَرَ المحقِّقَ الأوّلَ وَمَنْ يعملون بأمرته «على معاملتهم الصحيحة والإنسانيّة». ورغم ذلك كلّه فقد حكمت المحكمة على برايتنباخ بالسجن تسعة أعوام!

وهكذا تعرض الشاعرُ والرّسامُ الأعظم في جنوبي أفريقيا لكارثتيْن: السجن الطويل، والاعتذار إلى الجلاّد. بل كانت ثمة كارثةٌ ثالثةٌ أشدُّ مرارةً، وهي تخلّي «المؤتمر الوطني الأفريقي» عن دعمه إيّاه، وتخلّي كثيرٍ من طلاّبه والمعجبين به عن الاقتداء بِهِ مثالاً للشعر المكافح والشاعر المناضل.

في السجن تعرّض برايتنباخ للكثير من الضغوط، لكنَّ وضعه تحسَّن عام ١٩٧٨ بعد أن استقال وزير الداخلية «ڤورستر». وعام ١٩٨٢ اتُّفِقَ أن كان برايتنباخ ونلسون مانديلا في سجنٍ واحد (وهو پولْسمُور)؛ وعلى الرغم من أنّهما لم يلتقيا هناك أبداً، فقد كان برايتنباخ هو المكلَّف بتجهيز مستلزمات غرفة مانديلا وغرفِ رفاقه في قيادة المؤتمر الأفريقي!

وبفضل جهود «يولاند» الطويلة، تمكّن برايتنباخ من الخروج من السجن قبل عام ونصف من الموعد المفروض. فعادَ إلى باريس، وحصل على جنسيّة فرنسيّة. لكنّه بدءاً من منتصف الثمانينات سعى إلى أن يجْمع ستّين شخصية أفريقانية بيضاء بالقيادة المحظورة للمؤتمر الوطني الأفريقي. وقد تمّ له ذلك في السّنغال، وذلك بفضل علاقاته الممتازة برئيسها، وببعض قياديي «المؤتمر»، وبزوجة الرئيس السابق ميتران. وكان هذا الاجتماع هو الذي مهّد الطريق أمام الرئيس دي كليرك للقيام بمساعيه الإصلاحية والتوفيقية مع مانديلا، وصولاً إلى إطلاق سراح الأخير والشروع بعملية الدَّفْرَطة الداخلية للبلاد.

***

ذات يوم من الصيف الماضي، أُتيحتْ لي فرصةُ لقاء برايتن برايتنباخ. وكانَ ذلك في مكتبةٍ خاصة تُدعى «ماكوبر» وتقع على جادّة «ناسّو» في قلب پرِنستون في الولايات المتحدة الأمريكية. فقد نظَّمَتِ المكتبةُ لقاءً مع جمهوره بمناسبة صدور كتاب جديدٍ له عنوانُه **ذاكرة الطيور في زَمن الثورة** (١٩٩٦)، ومنه اقتطفتُ الرسالتيْن اللتين وجّههما برايتنباخ إلى مانديلا وعرّبتُهما.

كان برايتنباخ إنساناً جميلاً، فيه براءةُ الثوريّ ولامبالاة الشاعر وهدوءُ المحاضر. وكانت أسئلةُ الحضور تتمحور كلّها على لغة برايتنباخ: لماذا كتب بالأفريقانية؟ لماذا لا يكتب بالفرنسيّة؟ لماذا يكتب بالإنكليزيّة؟ لم يسأله أحد عن شيءٍ من تاريخه العاصف، وهو الإنسان الذي يُعَدُّ أعظمَ الشُّهود على ولادة وطنٍ جديد وأفول نظامٍ عفن.

وكاد اللقاء أن ينتهي، قبل أن أساله بنبرةٍ تفضح ضيقي بهذه الأسئلة التغريبيّة الأكاديميّة: «مِسْتر برايتنباخ، لِمَ لا تعود إلى بلادك؟». أجابني بعد تردّدٍ وبابتسامة حزينة: «الحقّ أنني أعود أكثر من مرّة في السنة». قلت: «ولكني أقصد: لِمَ لا تعودُ نهائياً إلى الوطن؟» تنهّدَ بعمق، ثمّ قال: «يا اللّه، لماذا لا تأتي الأسئلة الصعبةُ إلاّ في ختام اللقاءات والمحاضرات؟!». ثم أردف ما معناه أنَّ الزمن قد آن لكي يتوقف عن أن يكون مجرّد Mr. anti-Apartheid، ناطقاً رسمياً لا غَيْرُ للحركةِ المعادية للنظام العنصريّ.

في إجابته المرتبكة التي لم أعد أذكر منها الكثير، أحسستُ بأن برايتنباخ يريد أن يستريح مِن عبْءِ

(٣) عنوانُها «رسالة من الخارج إلى الجزّار»، وفيها يسأله: «هل يتصلّب قلبُك في حلْقِك حين تلمس أطرافَ ضحاياكَ المطفّأة، باليديْن اللتين ستداعبان أسرارَ زوجَتِكَ؟!».

الأيام السابقة. ولكنّي أحسستُ أيضاً بشيء مِن الخيبة إزاء ما آلتْ إليه الأوضاعُ في جنوبيّ أفريقيا. خيبة؟ ومن أين تأتي الخيبة، ومانديلا طليق، والأپارتايد يتهاوى؟

***

تلك أسئلة تُجيبُ عنها ـ إلى حدّ ما ـ بعضُ سطور الرسالتيْن اللتيْن وجّههما برايتنباخ إلى مانديلا... وفيهما يعبّر الشاعرُ والرسّامُ والنّاقد عن نقده لبعض الممارسات اللاديموقراطية التي قامَ بها «المؤتمرُ الوطني الأفريقي» **قبل** إطلاق سراح مانديلا (كتعذيب خصوم «المؤتمر» السياسيين، والتعتيم على قرارات فصائل أخرى مقاومة، واستيعاب المستقلّين، والتهويل على النّاس، والتحالف مع الحزب الشيوعي الستاليني النزعة، واستبعاد القوى الديموقراطية في صفوف البيض،...)، وعن نقده أيضاً لبعض سياسات مانديلا و«المؤتمر» **بعد** تبوّئهما سدّة الحكم (مثل: إدخال وزراء مجرمين ولصوص إلى الحكومة الجديدة، وشهوة وزراء آخرين للثراء والتسلُّط والفساد والإفساد،...) ناهيك عن بعض الإلماعات إلى تمركز السلطات في شخصيّة مانديلا، وإلى احتمال إثرائِهِ غير المشروع!

ومنذ كتابة الرسالتين، بل قبل ذلك بقليل، كشف بعضُ الدّارسين عن أمور ليست في صالح مانديلا ولا المؤتمر الوطني الأفريقي. فقد تحدّث ألِكْس كالينيكوس[٤]، مثلاً، عن أن الحكومة الجديدة لم تبنِ حتى أوّل عام ١٩٩٥ سوى ٨٠٠ بيت فقط في حين أنها كانت تنوي بناء ما لا يقل عن ٢٠٠ ألف! وكشف أيضاً أنّ النواب الجدد يتقاضون أموالاً كثيرة، وتحدّث عن حالات فسادٍ واختلاس داخل المؤسسة الحاكمة (والأخطر من ذلك أن مانديلا قد دافع عن بعضها، كما تُثبت قضيةُ «ألان بوساك» الذي كان يحوّل أموال المساعدات الخيرية الاسكاندينافية إلى مؤسّسته الخاصة!). وبدلاً من أن تكثّفَ الحكومة جهودها مِن أجل تحسين الأوضاع الاقتصادية، راح زعماؤها يتحدّثون بلغة البيروقراطية السابقة، فيبرّرون قلّةَ الإنتاج ببؤس الماضي وتَركتِهِ الثقيلة أو بتردُّد رجال الأعمال البيض عن الاستثمار...

وإذا كان لنا أن نبقى في الإطار الاقتصادي الاجتماعي لَلَزِمَ أن نذكر أنّ الشركات ماتزال إلى الآن في معظمها برئاسة البيض، وأن السُّود العاملين فيها ليسوا إلاّ غطاءً لتحكُّم الأوائل بها... حتى لشاع اليوم ـ عند البعض ـ القولُ التالي الذي لا يخلو من حدّةٍ وقسوة وتعسُّف: «إنّ جنوبيّ أفريقيا بعد زوال الأپارتايد قد صارت سوداءَ مِن الخارج، وأمّا في الداخل والصميم فهي لم تزل بيضاء!»

فإذا أضفنا إلى ذلك أنّ جهازَ القمع السابق ما زال ناشطاً داخل الدولة الحديثة، وأنّ النظام الجديد يبرِّر اللجوءَ إلى القمع عند الحاجة (ويدلّ على ذلك ـ مثلاً ـ توجيهُ مانديلا رجالَ السلطة إلى جامعة وِتْواتِرْسْتَانْد لقمع تظاهرات الطلاّب والعمّال، وأمرُه إيّاهم بإطلاق الرصاص عند الحاجة، وقد قُتِلَ نتيجةً لذلك أحدُ المتظاهرين)، بل صارَ ينظِّر لـ«الإنتاج» بديلاً من «الإضرابات» و«أساليب التعويق»... إذا أضفنا ذلك كلّه لأدركنا أنّ أمام المؤتمر الوطني الأفريقي والقوى الثورية عامّة الكثيرَ مِمّا يُنتظر إنجازُه، والكثيرَ مِمّا يُخاف فشلُهُ!

***

إنّ رسالتيْ برايتنباخ، بل دَافع **الآداب** إلى نشرهما أصلاً، ليست انتقاصاً مِن عظمة نلسون مانديلا وشموخه؛ فهو واحدٌ مِن قلّةٍ قليلةٍ في هذا العالم الشاسع يمتلكون ذلك السِّجِلّ الرائع من الشجاعة والتضحية والقوة الأخلاقية. ولا هي انتقاصٌ مِن أعرق حزب أفريقي مناضل في القارّة (نشأ «المؤتمر» عام ١٩١٢!). وإنّما الهدفُ من الرسالتَيْن ـ ومِن نشرهما هُنا ـ تأكيد حقّ (بل واجب) كلّ فرد ومُثقف في الإدلاء برأيه، والإصرار عليه، والاختلاف مع ذوي السلطة ومع الحلفاء أيضاً حين ينحرفون أو قبل أن ينحرفوا عن أهدافهم المرسومة... أيّاً تكن الحجّة التي يقدِّمونها لذلك الانحراف، وبغضّ النظر عن سِجِلّهم الماضي في الفداء والإخلاص.

بيروت

(٤) Alex Callinicos: "South Africa after Apartheid", **International Socialism,** no.70, Spring 1996, pp. 3-46

رسالتان مفتوحتان إلى نلسون مانديلا

١ـ الرسالة الاولى

كايپ تاون، ١٦ نيسان (ابريل) ١٩٩١

عزيزي السيد مانديلا،

اسمحْ لي أن أكون مِن الوقاحة بحيث أخاطبك في هذه الرسالة. وقد تبدو هذه الرسالةُ أشبهَ بكلبٍ ينبح على القافلة العابرة ـ فأنا لا أستطيع أن أدّعي فهمَ تعقيداتِ الوضع الحالي فهماً كلياً، ومطالعتي [للأحداث] متحيِّزةٌ وتحمل أحكاماً مسبَّقة، كما أنّ الرّسالة [أسلوباً] إنّما هي بديلٌ فقير من المساعدة في إرقاء جراح مجتمعنا المنبَجِسة. غير أنّه يجب القيامُ بكل جهدٍ ممكنٍ لتنبيه أكبرِ عددٍ يمكن بلوغُه من النّاس إلى عواقبِ العنفِ الذي تمارسه الدولةُ والجماعاتُ [العِرقيّةُ والمذهبيّةُ]. ذلك أنّ هذه البلاد ـ من الحالة «البيروتية» التي يعيشها الرجلُ الفقيرُ في مناطق «الريف» [التي يقطنها الملوَّنون]، الى التشويه المتعمَّد الغبيّ في مخيّمات كايپ Cape المستوطَنة [بغير حق أو أجرٍ]، فحقول القتل في الناتال، والانفجارِ الأعظم الذي يلوح مهدِّداً في سماء كايپ الشرقيّة ـ لَهِيَ على شفيرِ تمزيق نفسها تمزيقاً.

لقد صَدَحَتْ كثيرٌ من الأصوات المتألِّمَة المكروبة لِتُنذِرَ بأنْ لا حاجزٌ سياسيٌّ، ولا مصلحةٌ استراتيجيةٌ، ولا قضيّةٌ، ولا كِفاحٌ، بإمكانها أن تبرِّر لامبالاتنا الكلبيّةَ بمسألة الموت. فالقتل لا يَرْهن المساعي من أجل التوصل [عن طريق التفاوض] إلى جنوبي أفريقيا مختلفةٍ فحسب، بل هو يعفِّن المجتمع بآثار الفساد والثأر والبهيميّة التي يُخلِّفها؛ ونحنُ نُعامِل كُلَّنا بوحشيةٍ وبشكل تصاعديّ، ونُساق انحداراً إلى مَسْلَخ الدولة القمعيّة.

الآن، وبفضلك، جهرتْ منظمةُ «المؤتمر الوطني الأفريقي» أخيراً ومتأخِّراً، معلنةً أنّ المفاوضات في المستقبل [مع الدولة الأپارتايدية...] مشروطة بتوقف العنف. وإنّه لأمرٌ طيِّبٌ أنك أقررْتَ بإلحاحيّةِ هذا الأمر. بل الحقُّ أنّك، يا سيدي، ما كان سيكون لك أيُّ دَوْرٍ وطنيٍ لاحقٍ لتؤدِّيَه إنْ لم تُعْتَبَر سريعَ الاستجابةِ لعذاب الجمهور، وقائداً لـ«المؤتمر الوطني الافريقي» حقاً [وبفعاليّة] خارج حَلْقَةِ النّار المُفْرَغَة هذه.

لن يكون لك أيّ دور في المستقبل إنْ لم تُخرج البلاد من حلقة النار المفرغة!

أُلاحظ أنّ الحكومة [العنصرية] ووسائلَ الإعلام التي كانت على الدوام بيْضاءَ الجِلْد إزاء موت السُّود قد أوْلت رسالتك[1] بخُبْثٍ على أنّها إقرارٌ بالضّعْف، وأنّها نتيجةٌ للنزاع الداخلي [في صفوف «المؤتمر»]، وحيلةٌ للتأخير والتسويف [في المفاوضات]. وكان تأويلُها ذاك متوقَّعاً، وكان سيكون إدراكاتٍ مسوَّغَةً لمتاعب [يُعانيها] المؤتمر الوطني الأفريقي لو جاءت رسالتُك في ظروف مختلفة. لكنّها [الحكومة ووسائل الإعلام «البيضاء الجلد»] رفضت أن تقرأ دافعَ رسالتك: وهو أنْ لا شيء سَيُحَلّ حتى يتوقف القتلُ الذي أَفْرَخَهُ ـ ويغذّيه ـ الفَقْرُ وهَوى الحقدِ والكراهية.

لقد عُدْتُ لتوّي مِن قضاء عدةِ أيّام في المنطقة الداخلية من إقليم ناتال. وكنتُ قد أُخِذْتُ في نزهةٍ عبر «كلُوف» بموازاة أغنى المتلَكات في جنوبي

(١) يبدو أن مانديلا كان قد وجه رسالةً إلى الفرقاء المتصارعين يدعوهم فيها إلى التعاون ووقفِ حمّامِ الدم.

أفريقيا، فهي جنّة حقيقيةٌ للأغنياء البيض على المرتفعات التي تعلو «دوربان». ولقد أظهرتِ الجَنَبَاتُ ذاتُ الأزهار الأرجوانيّة، وأشجارُ النخيلِ، وكلُّ أشكال الحياة النباتية المداريّة[٢]، لَوْني المال: الفضيَّ والأخضَرَ. ويُقال إنّ هذه القصورَ المظلَّلةَ بالأوْراق [والأعشاب] الوافرةِ النَّمَاءِ، التي تنتمي – إذا جاز التعبير – إلى مكانٍ خارجَ هذا العالم، يحرسُها شبّانٌ ألْمانٌ مدرَّبون تدريباً خاصّاً. وبعد ذلك، وعلى مرمى حجرٍ، فيما كنّا نغطس منحدرين من قمة الجبل، بلغنا إلى حيث انشَقَّتِ الأرضُ عنْ تلالٍ متدحرجة متخَثِّرةٍ متكتّلة بأكواخ الفقر في «كوازولو» الريفيَّة. كانت الماشيةُ تتجوّل على الطريق، وكان الشُّبّان العاطلونَ عن العمل يستندون باسترخاءٍ إلى حائط مخزنٍ عامٍّ متهدّم مُخَلْخَل، والأولادُ يشقُّون طريقهم [ببطءٍ ومشقّة] عائدين مِن المدرسة الواقعة في أسفل الوادي: ثمةَ العزلةُ الرائعة للرفاهية الاستعماريّة [الكولونيالية]، والعزلةُ اليائسةُ للمساكن الحقيرةِ السوداءِ... العالَمُ الأوّلُ، واللاجدوى الفَجّةُ لعيشٍ كفافيّ بائسٍ، يعيشان جنباً إلى جنب!

والأكثر من ذلك: لقد كانت هذه منطقة حربية، والتجلّي البصريُّ [المُفْعَم بالحيوية] لقلب العنف. وبإمكان المرء أن يرى بالعين المجرَّدة أين تنتهي «أرض الرفاق» وأين تبدأُ «أرضُ إينكاثا»[٣]. فعلى الجانب الأوّل أرضٌ خرابٌ من بيوتٍ لا سقوف لها، ومن مدارسَ محروقةٍ بأكملها (وسكّانُها الآن مهجَّرون في أماكن أخرى)؛ وفي الجانب الثاني (للمنْجَمَع نفسه) ثمّة مساحاتٌ صغيرةٌ من الذُّرة وأشجار المانجو في مناطق يُحْكِم الضّباطُ [والقادة العسكريون] سَيْطرتَهم عليها. ولقد فُسِّرَ لي كيف كان بمقدور المرء أن يجلس فوق المرتفعات المميَّزة وقْفَةً متفرِّج [في مدرَّج رياضيّ] فَيشاهدَ مقاتلي الاينكاثا الشيطانيين[٤] يندفعون منحدرين لـ «تطهير المنطقة» مِن «حُثَالة» الروابطِ المسيحية أو الشيوعية أو النقابية العمّالية أو المدنيّة أو الطّلابية أو الأَسَاتِذيّة. وكانت باصاتٌ صغيرة تنقل أسلحة ناريَّةً تسرعُ بموازاة صفوف الجنود لتسلِّمَهم أدواتِ القتل ولتستعيدها منهم. وكانت طائرة مروحية تُقِلّ الزعيم بوتيلايزي [زعيم الاينكاثا] ووزيرَ القانون والنظام «فلوك» تنزُّ فوق ساحة المعركة. «هاتوا الدليل»، سيقول «فلوك» لاحقاً... و[يكمل]: «إنّ المؤتمر الوطني الأفريقي هو القاسم المشترك لجميع أعمال العنف».

مرَّةً بعد مرَّةً كانت تُقَدَّم لي أوصافٌ حَيّةٌ عن تواطؤ البوليس. وكان يُحْكَم في خاتمة المطاف على قائدٍ عسكريّ بتهمة قتل متعدِّدٍ، ثم «تضييعُ» خلاصةُ قراراتِ المحكمة أو «توضَعُ في غير موضعها»[٥]، الأمر الذي كان يفرض تأجيلَ المحاكمة، ثم يُقْتَلُ الشاهدُ قبل استئناف القضيّة! وفي مكتب «هاري غوالا»*، المشلولِ اليديْن، التقيْتُ أناساً نَجَوْا لتوّهم من محاولة اغتيالٍ ثالثة نفّذتْها مجموعةُ صَدْمٍ. استمعتُ إلى النبرة الثاقبة في أصوات النّاجين، وفي أصوات مَنْ يَعُدُّونَ الجُثَثَ، أولئك الذين يَسْكرون ويضحكون كما يَضْحَكُ المُقَنْبَلُونَ[٦] وحدهم. وتعلَّمْتُ أنّ الوجود الماديّ [الجسديّ] في مناطق الملوّنين لبعض البيض المعنيّين [الملتزمين بالسّلام والعدل...] هو وحْدَهُ ما سيمنع رجالَ الشرطة من المبادرة إلى القتل والإعانة على القتل والتحريض عليه[٧].

لقد أحْبَطتِ الدولةُ [الأپارتايدية] مناوراتِ المؤتمر الوطني الأفريقي [باصطناع مناوراتٍ أبرع]. وقد أدلى وزيرٌ عالي المنصب لي بملاحظةٍ، وهي أنهم [رجال الدولة] يروْنَ أن هناك فراغاً تحت القيادة العليا للمؤتمر الوطني الأفريقي، وأنّ النّاس في المناصب الدنيا لا يهمهم سوى جني المال. وهذا لا بدّ أن يعني أنّ الحكومة قد حاولَتْ وتحاول أن تحتويك وتستوعبك، أملاً في أن تشقَّك عن أتباعك. إنّها تَبتزُّك، بحَبْسِك في «شروط» التعاون

(٢) أعتقد أنّ برايتنباخ تعمّد استخدام كلمة vegetation التي لا تعني الحياة النباتية فحسب، وإنّما تعني أيضاً: حياةَ البلادة والخُمولُ والدَّعَة.
(٣) منظّمة سياسية عسكريّة تؤمن بـ «القيم التقليدية» وبمَلِك على زُولُو. وهي العدوّ اللدود لـ«الرفاق»، أي للمؤتمر الوطني الأفريقي.
(٤) لم أجد كلمة: impis في المعجمات؛ ولعلّ هناك خطأً مطبعيّاً، والصواب: impish.
(٥) غنيٌّ عن البيان أنّ النظام العنصري هو الذي يُقدِّم هذه الحجّةَ غيرَ المُقْنِعة للالتفاف على قرارت المحكمة.
(*) زعيم المؤتمر الوطني الأفريقي في منطقة ناتال الداخلية (هامش المؤلِّف).
(٦) وأقصدُ بهم الّذين يُعَانون مِنْ صدمة القنابل؛ ولم أجدْ خيراً من هذا التعريب لـ bomb - shocked.
(٧) وهذا ما سيدفع بـ «برايتنباخ»، في «ملاحظة» بعثها إلى مانديلا بعد هذه الرسالة، إلى أن يقترح عليه إقناعَ بعضِ البيض بالتناوب على قضاء وقتٍ ما في المناطق التي يقطنها مَنْ كانوا مِنْ غيرِ نَسَبٍ أوروبيّ.

«الموضوعية»[٨]. ثمّة «[جمهورية] جنوبي أفريقيا جديدة» تتدلّى أمام أنفك، ورئيسُ الدولة يرفضُ بعنادٍ أن يقرّ الطبيعة الإجرامية المتأصّلة في الدولة والثقافة الاپارتايديتيْن ويحاول أن ينقذها بقوّةِ الإصلاح والقبولِ الدّوليّ.

ولكنْ هل بإمكان المرء أن يلومه [ذلك الوزيرَ] حين يكون «العدوُّ»، أي المؤتمرُ الوطنيُّ الأفريقي، بهذا الضّعف؟ لن تخسر شيئاً سوى أوهامٍ ميّتة إن أنت أشَرْتَ إلى أنّ المؤتمر الوطني الأفريقيّ هو ضحية دعايتِهِ بالذات، وضحيّةُ خَلْقِهِ أساطيرَ وطموحاتٍ لا يمكن إشباعُها أبداً ـ كالقول بأنّه قد كان ثمّة «كفاحٌ مسلّح»[٩] وأنّ «القِلادة»(*) قد تكون وسيلةً للتحرير؛ وأنّ من الممكن إقناعَ البيض بـ«التخلّي عن السلطة» [وتسليمها للقوى الديموقراطية]؛ وأنّ العالم قَلِقٌ بشأن ورطتنا وأنّه مدينٌ لنا بالتّضامن معنا؛ وأنّ ذاك الذي مات مِيتةَ الفشل المفاهيمي والبنيويّ المخزي في أوروبا الشرقية يمكن إحياؤهُ هنا [في جنوبي أفريقيا][١٠]. يجب أن نُسلِّم على كرهٍ منّا بأنّ المؤتمر الوطني الأفريقي ليس (بَعْدُ) منظمةً ديموقراطية، وأنّه مايزال يُظهر اتجاهاً هيْمَنَوياً[١١] يستند إلى التّهويل والتخويف، وأنّه لم يكن يوماً دافعاً موجّهاً للثورة. إنّ المؤتمر الوطني الأفريقي هو حركةُ مقاومةٍ مَصُوغَةٌ من عذاب أجيالٍ، ومجسّدةٌ بَحْثَ شعبٍ عن العدالة؛ وهو المنظمة الوحيدة القادرة على حفظ ـ وربّما على تحقيق ـ حُلم [الهويّة] الجنوبأفريقانيّة South African. وهو أيضاً في قيْدِ استشعارِ طريقه (وأحياناً تلمُّسه) من أجل أن يصبح بنية سياسية مسؤولة. عليك أن تبيِّن لنا الطريق، أيّها السيد، بالاعتراف بأن الإصرارَ إصراراً كئيباً على [إبقاء] العقوبات [الدوليّة على جنوبي أفريقيا] ـ في عالم يعاني من فقدان ذاكرةٍ تاريخيّ ومن عنصريةٍ متجدّدةٍ متفجّرة، حيث المالُ سيتدفقُ على الدوام إلى حيث يُحْتَمَلُ أن يكون ثمّة استغلالٌ ـ لهو أمرٌ معوّق. لماذا ينبغي أن نتمسّك بوهم «المقاطعة الثقافية» وبعبثيّتها، وهي التي شهدتْ تمكين كوميساريين[١٢] ثقافيين ضئيلي الثقافة وتمكين مَنْ يرغبون في أن يكونوا مدراء منتجين [لبرامجَ تلفزيونية أو نشاطاتٍ رياضيّة]؟

يجب أن نتحرّر جميعاً من لَعْنَةِ ثقافةٍ تقومُ على «الأمن»، والسِّرّية، والمنظمات الأخوية والجمعيات السريّة، وعلى التلاعب، والارتجال، والتخويف والتهويل، والاحتواء والاستيعاب، والنخبويّة، واللامبالاة بحياة الإنسان وكرامته... على الحكومة ألاّ تُعطَى مبرِّراً يجعلها تعتقد بأنّك مِثْلُها؛ فأنْ تدخل في لُعَبِهِم الكلبيّة يعني أن تخون قلبك وتُميتَ لسانَكَ.

يجب أن نتحرر من لعنة ثقافةٍ تقوم على السرّية والاستيعاب والنخبوية!

علينا جميعاً، بطريقةٍ مّا، أن نُلْهِم الإرادة الوطنيّة وأن نعبِّر عنها [بوضوح]: أن نقِفَ العنفَ، وأن نُصبح منتجين [مثمرين] ومستقلّين [ذاتيي الحركة] لكي يكون بالإمكان أن نتحرَّر من ذُلِّ الحَسَناتِ والصّدَقات[١٣]، فنغيِّرَ تلك البنياتِ الاقتصاديةَ التي

---

(٨) لاحِظ استخدامَ برايتنباخ المتعمّد لكلمة «حَبْس»؛ فكأنّ الدولة التي حَبَسَتْ مانديلا سبعة وعشرين عاماً تُفرج الآن عنه لتحبسه من جديد بقيودٍ ما يُسمّى بـ«الشروط الموضوعية» للتعاون!

(٩) على الرغم من وقوف برايتنباخ بصلابة إلى جانب قضية التحرير والديموقراطية، فقد كانت لديه على ما يبدو تحفظاتٌ على «الكفاح المسلّح» الذي انتَهَجَهُ المؤتمرُ الوطني الأفريقي، كما تبيّن العبارةُ اللاحقة.

(*) «القلادة» هي عبارةٌ عن دولابٍ منقوع في البنزين، يوضع حول عنق الضحيّة وكتفيْه ثم يُشعَل (والتفسير هو لبرايتنباخ، لا للمعرِّب.. والأخير يأمل ألاّ تتعلّم الأنظمة العربيّةُ القامعة وقوى القمع الأخرى ذلك الأسلوبَ «المبتكَر»!)

(١٠) شرع برايتنباخ تدريجياً بالتخلّي عن فكره اليساري منذ إقامته في باريس في أوائل الستينات؛ راجع مقدّمة المعرِّب السابقة.

(١١) إزاء hegemonistic، أي تَسَلُّطِيّ.

(١٢) جمع «كوميسار» (في الروسيّة komissar)؛ وهو مسؤولُ الحزب الشيوعي المكلّفُ بتلقين الوحداتِ العسكريّة مبادئَ الحزب وسياساته؛ ثم تطوّرَ المعنى (مع تشومسكي مثلاً كما تبيّن محاضرَتُه التي عرّبْتُها مِنْ قَبْلُ بعنوان «الكتّاب والمسؤولية الثقافيّة»، **الآداب** ٧/٨ و٩/١٠، ١٩٩٦) ليشير إلى كُلّ من يسعى إلى تقييد الفكر أوْ تكييفه لرغباتِ سلطةٍ أو حزب.

(١٣) أرجِّح أن يكون هذا هو المعنى المقصود بـ hand - outs؛ ويتعزّز هذا الترجيح في الجملة اللاحقة ذات المضمون الاقتصادي. ومع ذلك فأنا لا أستطيع أن أصرفَ عن بالي طيْفَ معنىً آخر لهذه الكلمة، وهو «البيانُ المعَدّ للصُّحف» أو معنى ثالث هو «النشْرةُ التي توزَّعُ على النّاس مجّاناً» كتلك التي توزِّعها الأحزابُ بهدف تعبويّ. وفي المعنيين هذيْن ما يَنْضح بالنخبويّة والتلقين والرغبة في الاحتواء والاستيعاب عبر تنعيج الجماهير (أي جعلها طيِّعةً كالنِّعاج) أو قَطْعَنَتِها (أيْ حَشْرِها حَشْرَ القطيع).. وكلّها وسائل قد تعبِّر عن «لامبالاة بحياة الإنسان وكرامته»... إنْ كانَ لنا أن نستخدم كلماتِ برايتنباخ في المقطع السابق. أمْ أن تأويلي هذا متمحّلٌ متكلّفٌ متعسّف؟

هي نتيجةٌ للأپارتايد ومستفيدةٌ منه، ولِنبدأ ـ بالتالي ـ تضييق الهوة بين المتَضوِّرين والمُتْخَمين، ونخلقَ شروطَ الديموقراطية، ونضعَ أسسَ مجتمعٍ نستطيع أن نفخر به. وإنّ ذاك لَهُوَ، فيما يُشبعُ قناعتي ويرضيني، ما تشير اليه اقتراحاتُ المؤتمر الوطني الأفريقي الدستورية.

ينبغي أن تَجري انتخاباتٌ محلّيةٌ ومناطقيّةٌ وعامّة، ويجب أن يكون ثمّة مجلسٌ تأسيسيٌ [مُخَوَّلٌ سلطةَ وَضْعِ دستورٍ سياسي أو تعديلِه] منتَخَبٌ، ويجب أن يكون هناك (في غضون ذلك) سلطةٌ انتقاليّة محايدة ـ حكومةٌ مؤقتةٌ أو شكلٌ ما من أشكال الإشراف الدولي. وكلّ ذلك لن يقوم إلاّ بالتعبئة الشعبيّة المتواصلة المدعومة، وبالمشاركةِ والانخراطِ (ولكن، رجاءً، فلنحظُر ذلكَ المصطلَحَ الازدرائيَّ الذي يَرجع إلى القرن التاسع عشر: «الجماهير»!)، وبالقيادة الشجاعة والرّائية.

وقد تسألُ، حقاً، لِمَ لَمْ أكتب هذه الرسالة إلى الرئيس دي كليرك؟ أنا على قناعة بأنّنا ما نزال نحيا في الأهوال المخطَّطة للدولة الأپارتايديّة المحتَضرَة، وثمّة في جهاز الدولة عملاءٌ ماهرون حاذِقون ومحرِّضون يمارسون سياسة الأرض المحروقة بالمعاني المعنوية والسياسية والبشرية. ولا أشكُّ أبداً في أنّ الانحلال [أو الموت] الحالي قد كان مبرمَجاً [من مثل]: التحكم بالموارد تحكماً «حكيماً»، والاستفادة مِن بيئة عالميّةٍ معدّلة مُلَطِّفة(١٤)، وزعزعة استقرار الجمهور، والتنافس على [كسب] «المحترميّة»(١٥) المنافِقةِ و«التفوُّقِ الأخلاقيّ» الزّائف (وهما يأتيان مِن أسياد الموت القوميّ!)، وَمَطّ عمليةِ المفاوضات أملاً في أن يتصدَّع المؤتمرُ الوطني الأفريقي على «الطريقة الأفريقية» عِرْقياً [إثْنيّاً] وينكَسِرَ عمودُهُ الفقريّ بسبب تناقضاته الداخلية وثِقَلِ التوقّعات الشعبيّة. إنّ الرئيس دي كليرك لَهُوَ في أيدي الوحوش التي خَلَقَتْها دولةٌ شموليةٌ [توتاليتارية] لاأخلاقيّةٌ في الصميم.

أنا على قناعةٍ بأنّ الحربَ لم تتوقف أبداً. فـ«المفاوضات»، بالنسبة للسلطة، كانت وسيلةً لمواصلة حرب الاستنزاف ضد شعبِ جنوبي أفريقيا. وأنا مؤمن أيضاً بأنّه لم تكن ثمّة «قوةٌ ثالثةٌ» أبداً: فقد كانت «إينكاثا» منذ البداية مرصودةً لتكون قوةً أهلية متطوِّعةً [لفرض الأمن]؛ والآن بَسَطَ الإخوانُ(*) المدعومون من قبل الحكومة أياديَهُم الحمراءَ ليأخذوا بيَدِ «بوثيلايزي» [زعيم الاينكاثا] ـ الزَّلِقةِ بسبب الدَّم ودُموعِ التماسيح ـ وليرفعوه إلى مقامٍ من السموِّ القومي.

نَعَمْ، قد يَربح رجالُ الحكومةِ هذه الحربَ في المدى القريب، متحوِّلين عن «منبر»هم «البرلمانيّ»، ومتحالفين مع «الاينكاثا» وزعماء منشقين أو فاسدين من الجالية السوداء. وقد يُدمِّرون، كما في موزامبيق وأنغولا وناميبيا، ولكنّهم لن يستطيعوا أن يَبْنُوا. لن يستطيعوا أن يربحوا السّلام. لن يستطيعوا أن يحكموا ضد الأغلبيّة. ومن الحماقة أن يراهنوا على انشقاق المؤتمر الوطني الأفريقي. سيكون «نصرُهم» مُكْلِفاً [حتى لَتُلْغِي الكلْفةُ النجاحَ المفْتَرضَ] ويفرِّخُونَ بذور زوالِ جنوبيّ افريقيا زوالاً نهائياً.

إنّ ضيق الصدر، وإنّ هذا الموتَ انتظاراً، هما اللذان سمحا لي بالكتابة اليك، وضمّ صوتي إلى أصوات الْبَاكين في المناطق الملوّنة، ولأؤكّد من جديد ـ وليكنْ ما يكون ـ بأنّ قضيتك هي قضيتي أيضاً. لو تَقُودُ فقط!

مع احترامي الأخوي

---

(١٤) المقصود ـ والله أعلم ـ أنّ المجتمع الدولي كان في مطلع التسعينات قد بدأ بإظهار اللّين تجاه نظام جنوبي أفريقيا بعد خطواته الانفتاحية على المؤتمر الوطني الأفريقي.

(١٥) إزاء respectability، أيْ: كون الشيء محترَماً أو جديراً بالاحترام (راجع قاموس **المورد** لمنير البعلبكي، و**المنهل** الفرنسي ـ العربي لسهيل إدريس).

(*) Broeders: أعضاء من «رابطة الإخوان»، وهي منظمةٌ «ثقافية» شبه سرِّية مؤلّفة مِن ذُكور بيض أفريقانيين [أي جنوبأفريقيين من أصل أوروبي] ذوي قوّة [أو سلطة]. وتعمل هذه الرابطة بمثابة think tank [أي معهد أبحاثٍ يحلّ المعضلاتِ المعقّدة أو يتنبّأ باحتمالات المستقبل السياسي والعسكري] ومتحكّمٍ بالسلطة من وراء الكواليس. (والهامش ـ باستثناء ما بين المنعقِفَين ـ هو للمؤلِّف).

ملاحظة

استحوذَتْ رسالتي المفتوحةُ المؤرّخة في نيسان (ابريل) ١٩٩١ ـ فضلاً عن ردٍّ علنيّ قام به الزعيم غاتشا مانغوسوذو بوثيلايزي (وعبّر فيها عن دَهشةٍ مؤلمةٍ لكوني أنا، صديقَهُ القديم، قد انحَزْتُ علناً وعن جهلٍ ضدَّه وضدَّ إينكاثا؛ وليسَ هذا باللوم غير العقلانيّ!) ـ على بعض الاهتمام في الجرائد الأوروبية. وكانت أيضاً موضوعَ تقريرٍ أعدَّه سفيرُ فرنسا في پريتوريا إلى وزارة الخارجية الفرنسية. وكان نلسون مانديلا قد وصل أوائلَ حزيران في زيارةٍ إلى العاصمة الفرنسية. وقد واجَهَ بعضُ المسؤولين المولعين بالأذى ـ الذين أرادوا أن يقُوا أنفسهم فشلاً محتَمَلاً، أو حاولوا أن يستحصلوا على تأثيرٍ ما على المفاوضات الجارية آنذاك في جنوبي أفريقيا ـ زعيمَ المؤتمر الوطني الأفريقي بأسئلةٍ شكّاكة، وأحالوه على رسالتي محتجينَ بها. لكنّ المشكلة هي أنّ مانديلا لم يكن قد قرأ الرسالة على الإطلاق، رغم كونها قد نُشرتْ في أكبر جريدةٍ تصدر يوم الأحد واستثارتْ ردّةَ فعلٍ منافسه الرئيسي [بوثيلايزي]! (وهو ما يُظْهِرُ كيف تحكّمتْ حاشيةُ مانديلا بقدرته على الوصول إلى المعلومات [كما تتحكّمُ المصفاةُ بالماء]). فاتّصل بي في وقت متأخّرٍ من يومه الأول في باريس ليسأل عن الأمر بأكمله. فأخذتُ إليه نسخة [مِن الرسالة المفتوحة] في صباح اليوم التالي، وأرفَقتُها طيَّها رسالةً شخصيةً هذا هو ـ إلى حدّ مّا ـ نصُّها:

باريس، في ٥ حزيران [يونيو] ١٩٩١

في وقتٍ مّا مضى كانت لديّ وقاحةُ أن أكتب رسالةً مفتوحةً موجَّهةً إليك؛ ولا أعلم إنْ كنتَ قد رأيتها منشورة في جريدة الـ **Sunday Times**؛ وإنْ فعلتَ فآمل ألاّ تكون قد أخطأتَ فهمها. منذ ذلك الحين نُشِرتْ [لي] مقالةٌ ثانية، تنقد المؤتمر الوطنيَّ الأفريقي بشدّة، ولعلّها تعطي صورةً مفرطةً في تشاؤمها إزاء المستقبل. وقد يبدو نقدي ومخاوفي مبالَغاً فيها أكثر ممّا ينبغي: فهي تنبع مِن مطالعةٍ شخصية فيها نقاطٌ عمياءُ وآمل أن يكون فيها أيضاً بعضُ التَبصُّرات. أنا أعي أنّ التشاؤم قد لا يُعبِّرُ عنه دوماً في اللحظة الصائبة، وأنّه قد يُساء استخدامُه من قِبَلِ خصومنا. وتلكُما مِن بعض المجازفات التي تواجه المرء حين يعمل فردانياً مستقلاً. ولكنّ الوضع في البلاد [جنوبي أفريقيا] مُوئسٌ، وأودّ أنْ تعلم أنّ معارضتي ـ حتّى حين تكون شديدةَ القسوة أو غيرَ منصفةٍ ـ إنما يُقصد بها على الدوام أن تكون تعبيراً عن ولاءٍ نقديّ. أنا أؤمن بقضية المؤتمر الوطني الأفريقي. وأنا أؤمن بأنّني مدينٌ لقناعاتي بأن أقول الأمور كما أراها، وآملُ بإخلاصٍ أن تُقبَل [منّي] بهذه الروحيّة. (أرجوك ألاّ تظنّ، مع ذلك، أنني أعتبر ملاحظاتي أو تعليقاتي شديدةَ الأهمية!).

معارضتي تعبيرٌ عن ولاءٍ نقدي، حتى حين تكون شديدة القسوة أو غير منصفة!

على أيّ حال، بعد تلك الرسالة المفتوحة، عَنَّفَني صديقٌ لي على «دعوتي إيّاكَ لأن تقود» (وعلى قولي إنني أوافق على قضيتك، التي هي كفاحُنا المشترك) دونَ أن أقترح ما ينبغي عَمَلَه. وقد أثَّرَ كلامُهُ في نفسي. وعلى الرغم من أنّه سيكون مِن المضحك الادِّعاءُ بأنني أقترحُ سياساتٍ أو أُقدِّمُ وَصْفاتٍ علاجيّةً [جاهزةً] لتوجّهات، فقد رأيتُ أنّه سيكون من الإنصاف وحدَه أن أفصّلَ أفكاري بعضَ الشيء. إنّ الملاحظات التي أوَدُّ أن أقدّمها إليك تتعلّق بالمفهوم [أو الفكرة] بقدْرِ تعلُّقها بالجَوْهر [أو المادّة]، وستكون عديمةَ التنظيم (فقد كُتِبتْ على عَجَلٍ من حيث خَلْطُها الأهدافَ القريبةَ بالأهداف البعيدة [المدى]. ومجدّداً أقول: إنّ نقطة انطلاقي هي إيماني بعدالة قضية المؤتمر الوطني الأفريقي؛ بل أنا أؤمن حقاً بأنّ على المؤتمر أن يُظهر ثقةً أعظم بصحّة

كفاحه التاريخية لكي يستطيع أن يكون أكثر ليناً ومطواعيةً، وأقلّ إحساساً بجنون الارتياب، ولأنني أؤمنُ أيضاً ـ وعلى الطريقةِ العتيقة الطِّراز ـ بأنّ الوحدة تُصاغ بالعمل (أي بأنّك قادرٌ على أن تكشف عن قيادةٍ أكثرَ رُؤْيويةً **لتجرَّ** النّاسَ معك)؛ وأؤمن أخيراً أنّ على المؤتمر الوطني الأفريقي **واجباً ملحّاً هو استعادة المبادرة**(١٦).

١ـ أوافق على تشكيل وحدات للدفاع الذاتي عن النفس؛ فهذه هي أقلُّ إجراءات الحماية التي يتوجب اتخاذُها. لن تستطيع هذه الوحداتُ وَقْفَ القتل. وأعتقد أنّه سيكون مِن الأمور المُساعدة أن يتمّ إقناعُ بيضٍ متعاطفين [مع قضيّتنا] ـ لا إقناعُ أعضاء من المؤتمر الوطني الأفريقي ـ بالتّناوب على قضاء وقتٍ في المناطق التي يقطنها الملوّنون [من ذوي النَّسَب غير الأوروبيّ] بحيث يكون هناك موجوداً على الدوام عددٌ من البيض المحايدين، نهاراً وليلاً.

٢ـ وأعتقد، بالمِثْل، أنّ الوقت يكادُ أن يفوت قبل أن ندعو ممثّلي المنظمات غير الحكوميّةِ الأجانبَ إلى البلاد، مِن أجل مراقبة الوضع والتدخُّلِ بأنفسهم بين الفرقاء المتصارعين.

٣ـ على المؤتمر الوطني الأفريقي أن يفرض نظاماً أشدَّ صرامةً بكثير على عناصره بالذات، وأن يقنعهم بالامتناع عن تخويف النّاس (ورجالِ الصحافة بشكل اكثر كارثيةً!) أو التهويل عليهم.

٤ـ من واجب المؤتمر الوطني الأفريقي أنْ يُوضح تحالفاته الداخليةَ ويصنِّفها. فمن الهُراء الزّعم بأنّ بمقدور المرء أن يكون في منصبٍ قياديٍّ في كُلٍّ من المؤتمر الوطني الأفريقي والحزب الشيوعي لجنوبيّ أفريقيا معاً؛ فليس ثمة من ينخدعُ [بهذا]، و«الأسبابُ التاريخية» لم تعد تَثْبت [على محكّ النقد أو التحليل]. سيكتسب المؤتمرُ الوطنيُّ الأفريقي [إذاك] مصداقيةً، وسيتوضّح النقاشُ الجاري، وسَيتَصلَّب التحالفُ [بين الأطراف المتحالفة، كالحزب الشيوعي و«المؤتمر»] إذا كان للأشخاص المعنيين أن يتلبَّسوا قناعاتهم واختلافاتهم بوضوح. وإلاّ فكيف ستذهبون إلى صناديق الاقتراع، مثلاً؟

٥ـ على المؤتمر الوطني الأفريقي أن يقترح تأليف منبرٍ [أو منتدى] عامٍّ دائم، يضمُّ أكبرَ عددٍ ممكن من التشكيلات السياسية والنقابية والمدنية ـ كلِّ التشكيلات الملتزمة بإعطاءِ جنوبي أفريقيا «بديلةٍ» معنىً وجوهراً. والهدف هو تعزيزُ النقاش حول كل الأمور، والتوصُّلُ إلى قراراتٍ مشتركةٍ ما بخصوص مبادئ ومشاريع **تُلزم وبشكل ديموقراطي** كلَّ الأطرافِ المشاركة. ومن الواضح أنني لا أقصد هنا الحزبَ الوطني(١٧)؛ فالطريقةُ الوحيدةُ لمساعدة دي كليرك هي عزلُهُ ومعاداتُه بقوّةٍ ونشاط. ولكن من الضروري أن يُثبتَ المؤتمرُ الوطني الأفريقي قدرتَه على التعاون بإخلاص مع مجموعاتٍ لا تقع في العادة ضمن مدارِهِ هو (ومنها الحزبُ الديموقراطيّ، مثلاً)، وقدرتَهُ على التوقف عن التلاعب بـ«الجبهات» و«الحُلَفاء» من خلال "plants"(١٨) وغير ذلك. فمعظم المثقفين البيض، كالدَّكّارين(*) مثلاً وغيرهم من المتعاطفين [مع قضية المؤتمر الوطني الأفريقي] (والأمر عينُهُ ينطبق على أنصار الوعي الأسود)، قد تُركوا عرضةً [للخطر أو التجريح]، وعُوملوا معاملةً جافّةً لامباليةً، وتُجوهِلُوا بِصَلَفٍ وتكبّر، حَتّى صار كثيرٌ منهم الآن في صفّ النظام [العنصري] الحالي!

٦ـ وهذا ما يدعوني إلى أن أؤمن بضرورة أن يصار إلى تأسيس نقاش ومجموعاتِ بحث، وإلى تعزيزها قطاعاً قطاعاً، لتشمل كلّ قواعد حياتنا

(١٦) البنط الأسود في هذه الرسالة هو للمؤلف.

(١٧) حزب الأقليّة البيضاء الذي ارتبط بالنظام العنصري، ويرأسه دي كليرك رئيس الجمهوريّة آنذاك (اي زمنَ كتابة هذه الرسالة). والجدير ذكره أن دي كليرك هو الذي سيباشر فيما بعد القيامَ بالمفاوضات مع مانديلا ويخسر ـ في انتخابات ١٩٩٤ ـ منصبه لصالح خصمه!

(١٨) أقرّ بعجزي عن فهم المقصود من هذه الكلمة. والأرجح أنها تعني التجهيزات المستعملة في أعمالٍ صناعية أوْ مؤسساتيّةٍ ما. أو لعلّ ثمّة «شيفرة» معيّنة يفهمها الطرفان (المرسِل والمرسَل إليه) ومواطنوهما، وتستعصي على غيرهم.

* تقدميون [بيض] من جنوبي أفريقيا كانوا قد سافروا إلى ذكار في السِّنغال عام ١٩٨٧ للقاء [قيادة] المؤتمر الوطني الأفريقي الذي كان آنذاك ما يزال ممنوعاً ومنفيّاً (الهامش هو للمؤلف).

المنجمعيّة ومسالِكِها ـ من أجل الإسهام في تقديم فكر وتخطيطٍ لرؤية جديدة لأمتنا. وإنّه لَمِنَ الأمور **الملحّة** أن يُنظر إلى المؤتمر الوطني الأفريقي بوصفه معزِّزاً لانخراطِ **كلِّ** مواطني جنوبي أفريقيا، مشاغلَ ومعارفَ ومصالحَ، وبطريقةٍ غير فئويّةٍ. إنّ جنوبي أفريقيا لن تُصاغ وتُشَكَّلَ على يد المؤتمر الوطني الأفريقي وحده، وهذا الهمُّ ليس هَمَّ «القادةِ» والنخبة وحدهم حصراً. إنّ علينا أنْ نكسر ثقافةَ الاحتواء الكريهة الرهيبة.

٧ـ على المؤتمر الوطني الأفريقي أن ينبذ سياسةَ الدعوة إلى فرض عقوبات [دوليةٍ على جنوبي أفريقيا عقاباً على سياستها في التمييز العنصري]، وذلك باسم الفطرة السليمة والسماحة، وكَفِعْلِ إيمان المؤتمر نفسه بعدالته. وبالمثل، فقد آن الأوان لنتخلص من موقف الشحّاذ في الاعتماد على العالم الخارجي. توقفوا عن لعب دور الضحيّة. فليس المؤتمرُ الوطني الأفريقي هو الطرف المظلوم، بل هو عاملُ التغيير والبناء، يأخذ الوسائل التي في متناول يده ثُمَّ يحوِّلها. فالموارد إنّما هي في الدّاخل [جنوبيّ أفريقيا]!

٨ ـ وختاماً، فإنّني مقتنع بضرورة إيلاء القطاع الثقافي اهتماماً أكبر. فهناك، حيثُ الثراء الخلاّقُ لتنوّع المصادر والتعبيرات ولاختلافها، سيتشكّلُ مفهومٌ ووعيٌ لهويةٍ وطنية تشكُّلاً حقيقياً.

أرجوك أن تتقبّل تعبيري عن تمنياتي المخلصة الخيّرة، وسامحني على وقاحتي.

ب.ب

٢ـ الرسالة الثانية

برلين في ١٧ أيار (مايو) ١٩٩٤

عزيزي السيّد الرئيس،

«لقد حلّت علينا ساعةُ البناء». هذا ما أعلَنْتَهُ قبل أيام قليلةٍ فحسب، حين كنتَ تؤدّي القَسَمَ الدستوريَّ لتصبح رئيساً لجنوبيّ أفريقيا. وبالرّغم من أنّ كاتِبَ خُطبك قد نَهَبَ، وبوضوح جليٍّ، سِجِلاّتِ قَرْننا بحثاً عن مفرداتٍ هي مِن سَقْط المتاع، وعن عباراتٍ مستهلَكةٍ مبتذلة يتملّق بها كلّ ذَوْقٍ يمكن تصوّرُه، فإنّ الأفكارَ النبيلةَ قد كانت وحدها هي التي شعَّتْ خَلَلَ خِطابك [الدستوريّ]. وقد يكون من التجرّؤ وقلّة اللياقة أن أكتب لك على هذا النحو، في وقتٍ ماتزال فيه الشامبانيا تُبَقْبِقُ [ابتهاجاً بزوال نظام التمييز العنصري «الأپارتايد»، وتنصيب مانديلا رئيساً بعد أكثر من سبعة وعشرين عاماً في السِّجن]. ولكنّني أفعل ذلك لكي أصادق على تلك المشاعر [النبيلة].

المؤتمر الوطني الأفريقي ليس (بعد) منظمة ديموقراطية!

كما أنني أكتب إليك لإدراكي بأنّك تريدنا جميعاً أن نشارك في بناء سِقالاتِ بُرْجِ بابلٍ مختلف(١). وأنا أرحِّب بالدّعوةِ، وأرغب في أنّ أعتبرها دعوةً مخلصةً. أرجوك أن تتقبّل، علامةَ احترام أقصدها، قولي: إنّ تعاوني [معك] سيكون مشروطاً ونقدياً.

لقد شاهدتُ أداءَك [في جلسة القَسَم] مثلما شاهده الملايينُ في أربعة أرجاءِ العالم، وأحسستُ بضيقٍ ما في الصّدر لأنني لم أكن في بلدي، وبفيضٍ من الأحاسيس الشخصيّة الخاصّة وبالاعتداد العلنيّ بالنّفْس تتدفّقُ في رأسي [مهرولةً مُضطربةً متشقلبةً]. لقد بدوْتَ شديدَ الوقار، واقفاً هناك قابضاً على قلبك (لِمَ هذه الإيماءةُ التعبيريةُ الأمريكيّة؟). وفي حين كانت ابنتُكَ، ذات الثوب

(١) الجدير ذكره أنّ بناء برج بابل، بحسب سِفْر التّكوين، قد تعثّر بسبب اختلاط الأصواتِ واللغات. فهل يشير برايتنباخ إلى حلم التغلّب على الأسطورة القديمة، بحيث تتجاور الثقافاتُ والألسنة والقوميات المختلفة و«المتنافرة» داخل جمهوريّة جنوبيّ افريقيا لتبني على أنقاضِ المجتمع الأحاديّ العنصريّ السابق مجتمعاً تعدّدياً جديداً؟

الأحمر، تعرف بوضوح كلمات «دي ستَمْ» [النشيد الوطني لدولة التمييز العنصريّ] نفسَها، فإنّ شفتيك لم تتحرّكا لأيّ من النشيدين [الأپارتايدي المذكور، ونشيدِ «المؤتمر الوطني الأفريقي» الذي يرأسه مانديلا]. لربّما ليس عليك بعد اليوم أن تُنشِد أبداً؛ غير أنّي أحثُّك على الاستمرار وإنْ لمجرّد تمرين تنفُّسِكَ. ولكنّه بدا أيضاً وكأنّكَ كنت تصغي [آنذاك] إلى صوتٍ داخليٍّ مّا.

واتّصلت سيِّدة مِن أمستردام[٢] لتقول إنّها كانت مِن حداثة السِّنّ حين مات [قُتِل] كنيدي بحيث أنّ موتَه لم يُحدث في نفسها تحوّلاً [جذرياً]؛ لكنّها هذه المرة تُدرك [إذ ترى مانديلا يؤدّي القسم] بأنّها تشهد التاريخَ قَيْدَ الصُّنْع!

وعلى هذا النحو تهتزّ نفوسُنا. وتطفو إلى السَّطح اقتباساتٌ ونُتَفُ استشهاداتٍ، مِثل: «إنّ الحريّة ما هي إلاّ مرادِفٌ للقول بأنْ ليس ثمّةَ ما تبقّى لنخْسَرَهُ»؛ أوْ مِثل قولٍ مكسيكيّ قديم: «إنّ مَنْ لا تحبّه الآلهة تجعله واحداً منها»؛ أو «إنّ الفهم هو عمليّة إعطاء المعاناةِ مَعْنًى»؛ أو القولِ المقتبس مِن أنطوان دو سان إكزوپيري: «قد لا يعني الهدفُ شيئاً، غير أنّ الوصولَ إليه يخلّصنا مِن الموت».

فلتكنْ على ثقةٍ، أيُّها السيِّد الرئيس، أنّني أحترمك أخاً في الإنسانيّة، لا بُدّاً[٣] أفريقياً مّا.. فأنت لستَ إلاّ الأوّلَ بين أندادٍ[٤]، تواجه شأنَنا جميعاً قِناعَ الموتِ المُكَشِّرَ: ذلك الخنزير المتناهي في التبجُّح ذُكورةً وفُحُولَةً. وسيأتي وقتٌ أبكرُ مِمّا ينبغي (وهو يأتي على الدوام) يتكالب فيه مَنْ يَدّعُون خلافَتَك [أو يَرْغبونَ فيها] على حَفْر الغنائم ونبشِها، ويلوِّحُون بموميائك أيقونَةً [كريهةً] للشرعية[٥].

لقد كانت ثمّة صموتاتٌ في النصّ الانتقاليّ، وهذا أقلُّ ما يُقال، (وكان النصّ التحتيّ أحمرَ دبقاً إلى حدٍّ ما)[٦]. لقد جَرتِ الانتخاباتُ، كتعبير تأسيسي عن مبدإِ تقاسم الكرامة [بين السُّود والبيض والقوميات المختلفة...] بأفضل مِمّا كان متوقَّعاً بكثير، وإن شوَّهَها احتيالٌ وارتباكٌ غيرُ مسبوقيْن تاريخياً [مِن حيث ضخامتهما]. وكان مِنَ الطبيعيّ أن يسعى السياسيّون، دونما إبطاء، إلى استرداد أصوات النّاس، وذلك بالتلاعب والتأويل. ولكنّ أهمّ ما في الأمر هو أنّ العنف قد خفّ تدريجاً، على ما يبدو. (إنْ كان ثمّة مِن رابطٍ بين النتيجة والسبب فَلِمَ لا يكونُ بوسعنا أن نصوِّت كُلَّ أُسبوع؟!). وإلى الآن، فإنّ رُسُل الشُّؤم ـ بمن فيهم المخلصُ لك [المقصود: برايتنباخ نفسه] ـ قد أخطأوا تماماً وفي كل شيءٍ (أم أنّ الأمر لا يعدو أن تكون جنوبيّ أفريقيا قد سقطت مِن الصفحات الأولى للجرائد العالمية؟). وما أروع أن أكون على خطإ!

غير أنّ الشعور [المبالَغَ فيه] بالصحّة والنَّشَاط والتِّيه لن يدوم. فقد يصبر النّاس، لكنّ الصَّبر ليس طعاماً ولا ملجأً. ولهذا نُستَدْعى [مِن طَرَف مانديلا] لِنُقَنِّي[٧] التناقضات ولِنبنيَ أمّةً. وبكلمات أُخرى، فإنّ علينا أن نتخيَّل نظامَ تركيب الوفاق الوطنيّ، أي عمليّةَ ربط النّاس حول قيم مشتركةٍ ومفاهيم متبادلةِ الفهم. وقد يتأتّى هذا [النظامُ المرجوُّ] بفضل رموزٍ بمقدورنا جميعاً أن نجعلها رموزَنا نحن، وأوّلُها: العَلَم الجديد ـ وهو إخفاقٌ شنيعٌ حتى حدود الكارثة! علينا أن نخترع ذلك الانسجامَ الذي يتآلَف

(٢) المقصود، على الأرجح، أنّها اتّصلت بمقدِّم البرنامج التلفزيوني في برلين، الّذي كان يبث جَلْسةَ «القَسَم» من پريتوريا مباشرةً.

(٣) إزاء fetish؛ وقد عرّبها الصّديق كمال أبو ديب في ترجمته لكتاب إدوارد سعيد **الثقافة والامبريالية** تعريباً لا يخلو من طرافةٍ وابتكار، وهو: «صَنِيمَة».

(٤) أجدني مضطرّاً لأن أرجو القارئ أن يعيد قراءة هذه الجملة مرّةً بعد مرّة: «you are but the first among equals»، لانني اجد فيها زُبْدَةَ موقف برايتنباخ من النظام الثوريّ الجديد ومَن شخص الزعيم مانديلا نفسه. فمانديلا، بحسب هذا الموقف، إنسانٌ أوّل، طليعيّ، فدائي.. لكنّه في نهاية المطاف فردٌ كسائر أفراد البشر، عرضةٌ للموت والقتل والخديعة والخطإ.

(٥) المقصود، والله أعلم، أنّ مانديلا سيصبح بعد موته تمثالاً يحاربُ به أركانُ النظام العتيدِ أعداءهم الجدد باسم «الشرعيّة»؛ علماً أنّ هذه «الشرعيّة» قد كانت هي الذريعة عينُها التي حارَبَ بها جلاوزةُ النظام العنصري السّابقِ قوى التحرّر والديموقراطية مِنَ السُّود والبيض على حد سواء.

(٦) يكتنِف هذه الجملةَ الكثيرُ من الغموض. ولعلّ النصّ «الانتقالي» هو مجموع الخطابات (أو الإنشاءات) التي كُتِبَتْ عن الانتقال من حكم التمييز العنصري إلى التعددية الديموقراطية المفترضة. وأمّا «الصموتات» (أو الغيابات) فلعلّها الأمورُ التي لم تلحَظْها تلك الإنشاءاتُ الانتقالية؛ ويتعزّز هذا التأويلُ المحتمل بحديث برايتنباخ عن النصّ التحتي الأحمر الدّبِق الّذي قد يؤشِّر إلى الدِّماء والشهداء التي تُنوسيت في الخطابات الانتقالية (ومنْ ضِمْنها خطاب الرئيس مانديلا نفسه!).. وإنْ كان من المحتمل أيضاً أن يكون برايتنباخ يغمز ـ كما نَبّهني صديقٌ لي باحثٌ من جنوبي افريقيا هو «شامِل جِيِّي» ـ مِن قناةِ الحزب الشيوعي في جنوبيّ أفريقيا نظراً للتحالف الممتاز بينه وبين «المؤتمر».

(٧) إزاء to channel، اي: لنحصر الخلافات في قناةٍ واحدة أو اتجاهٍ واحد.

من التغيّر [الديناميكي] الحيويّ. علينا أن نخترع أنفسنا.

إنّ بعضَ الإجراءات الأُولى التي اتَّخَذتَها [منذ تسلّمك الحكمَ] لم تكن مشجِّعة. فاختيارُك للوزراء ـ وأستميحُك عذْراً بهذه الملاحظة ـ قد كان على قَدْرٍ رائع مِن... انعدام الخيال[٨]. وقد يَقْنع المرءُ بماً يتعذّر اجتنابُهُ: وهو أنّ على ذلك الخيار [الوزاري] أن يكون لحافاً مُرَقَّعاً مِن مصالح متباعدةٍ يجب أن تُخاط الواحدةُ منها إلى الأخرى. ومع ذلك، فَهَلْ كنتَ مُلزَماً بأن تُشرك [في الحكومة الجديدة] ذلك العددَ الكبيرَ مِن المحتالين والغَوْغائيين [الدَّهمائيين] والدوغمائيين [أصحاب العقائد الجامدة]؟ إنّ بين أولئك الوزراء والوزيرات المداهنين أُناساً على أيديهم الدِّماءُ (أو أنّه يلزم، في أقلّ تقدير، أن تكون الدِّماءُ على ضمائرهم). وقد يقول قائل: طيّب، هذا صحيح، ولكن الحكومة الحاليّة هي رغم كل شيءٍ أفضلُ من المجموعة [الوزارية] السابقة مِن الكَذَبة واللُّصوص وفاقدي الأخلاق. وإنّ ذلك لبالغ الصحّة، لكنّه ليس عذراً كافياً، بملحظِ وَفْرة المؤهَّلينَ والملتَزمين [المُنْدَفعين] من مواطني جنوبي أفريقيا الّذين كان بمقدورك أن تستدعيهم.

لقد قرَّرتَ، وبمرسوم رئاسي تقريباً، أنّه لم يعد ثمّة برابرةٌ يَقْرضُونَ [شيئاً بعد شيءٍ] تُخومَ الشَّرف الأخلاقي المتنوِّر («ولقد كان أولئك النّاسُ مخرجاً مّا [للأزمة]»، كما قال كَفافي). ومع ذلك، فإنّ الوفاق الوطنيّ ليس مجرَّد أمرٍ أو رغبةٍ تقيَّة، بل يجب أن يكون عمليّةً مدعومَةً مُمَدَّةً بعوامِلِ الاستْمرار. نحن، شعبَ جنوبي أفريقيا، لم نَخْتبر التَّطهيرَ التاريخيَّ المرافقَ للثورات (أو أننا لم نختبره حتى الآن، في الأقلّ، وإذا حدث في المستقبل فسيكون وبالاً علينا). لكنّنا لوْ حَزَمنا أمرَنا على طريق توليفِ الطَّاقاتِ توليفاً خلاّقاً، فلربّما استطعنا أن نحقّق ثورةً مِن صُنْعنا نحنُ بالذات، ثورةً قد تمهِّد الطريق لعلاج مشاكلنا الاجتماعية والاقتصادية الملحّة.

في هذه القفزة العظيمةِ قُدُماً مِن أجل تحقيق ديموقراطيةٍ ذات وجهٍ إنسانيٍّ، سيكون واجباً علينا أن نستلهم المفارقاتِ الكثيرةَ الكامنةَ المتأصّلةَ في مجتمعنا. ذلك أنّ النّاس المتحمِّسين لاختلافهم عن الآخرين، بل المصرِّين بقوّةٍ على ذلك الاختلاف، هم الّذين ينسجمون بشكلٍ أسهل مع تجمُّع [أوْ تجميع] أكثرَ شمولاً. وسيكون التأمُّل الثقافيُّ المتمحورُ حولَ جدليّة الهويّات القَبَليّة والقوميّة بدائياً. والفاشيّة، بالتعبير الثقافي، هي فرضُ مخطَّطاتٍ فخيمةٍ وشكلانيّة لا تسمح ـ باسم الوطنية والعدالة ـ بالرُّقي ولا بالابتكار، بغضّ النّظر عمّا إذا كان تسويغُ ذلك الفَرْض مستوحىً مِن الليبراليّة أو الاشتراكية. وأنا أفترض أنّك تريد تجنيبَنا ذلك الانجرافَ إلى التوتاليتارية [الشموليّة] التي تهنُّئ ذاتها!

إنّ المتحمِّسين لاختلافهم عن الآخرين، بل المصرِّين على اختلافهم، ينسجمون بشكل أسهل مع تجمّع أكثر شمولاً!

فما لم يكن الحُكْم لعبةً لا تنتهي من تحرُّكاتٍ تقوم بها القوى السياسية خِفْيَةً، [تحرّكات] تنفجر في الشّوارع من حينٍ إلى آخر تحت عنوانٍ خادع هو «الفِعْلُ الشعبيّ الجماهيريّ»[٩]، فإن علينا أن نكون متسامحين كُلَّ التسامح إزاء تعدّد الآراء، وذلك من أجل تأمين الحركة [السياسية والاجتماعية]. فالتركيز الشديد للسّلطة [في حزب أو شخصٍ واحد] سيصبح في حدّ ذاته عائقاً أمام التحرُّك قُدُماً.

أنتَ تعلم ـ وإنّ ما ابْتُليتَ بِهِ [مِنْ سجنٍ وتعذيب ومطاردة] لَهُوَ بُرهانٌ أكيد ـ أنْ ليس لدينا مِثْلُ هذا التقليد مِن التسامح أو الْفِطرة الشعبيّة السّليمة [التي تسْتَبْدِهُ التّسامح، أي تعتبره أمراً عفوياً بَدَهيّاً]. فـ«الحزب الوطني»[١٠] لم يشرع في تفكيك

(٨) تعمُّد برايتنباخ استخدام كلمتي superbly unimaginative المتناقضتيْن، وذلك على سبيل الإردافِ الخُلْفيّ (oxymoron).

(٩) إشارة إلى أنّ قيادات الأحزاب والقوى السياسية هي التي تحرّك قواعدها وكوادرها للقيام بأعمال عِصيانٍ وثورة، وذلك للتنصُّل مِن التزاماتها تجاه الأحزاب والقوى الأخرى.

(١٠) وصل الحزبُ الوطني إلى سُدّة الحكم عام ١٩٤٨، واستمرّ في الحكم برئاسة ف. دبليو. دي كليرك حتى زوال الأپارتايد. والجدير ذكره أنّ هذا الحزب والنظام العنصري يتماهيان تماهياً مطلقاً.

نظام «الأپارتايد» (الذي حَظِيَ من وجـــهـــة نظر القامعين بنجاح كبير، إذ أثْرَى أجيالاً مِن البيض، مُضْعِفاً في الوقت نفسه نسيجَهم الأخلاقيّ بحيث باتوا لا يفقهون الحقائقَ البسيطةَ نفسها) نتيجةً لاقتناع أو اهتداءٍ ذاتي، بل لأنّه نُوورَ حتى أُخْضِع [للقبول بعمليّة التغيير الديموقراطي] بفعل مزيج من العوامل. وبالمثل، فإنّ أصحابَ الشّركات الكبيرة(١١)، الّذين يستطيعون أن يؤدُّوا دوراً جباراً مِن أجل التغيير، لن يخفّفوا أبداً مِن ظمئهم الذي لا يُرْوى لأرباحٍ أكبر فأكبر على الدّوام، حَتّى يُجبَروا على القيامِ بذلك. إنّ النّصف العنصريّ العلنيّ الصريح مِن الوحش الأپارتايدي هو الذي مات؛ وأمّا نِصفُه الثاني: الاستغلالُ الاقتصاديُ، فهو لمّا يزل حيّاً يُرزَق ومازال يعمل بطاقةٍ وحيويّة.

وبالمثل مـــرّة أخـــرى، فـــإنّ «المؤتمر الوطني الأفـريقي»(١٢) ليس منظمة متسامحةً، ولم يكن يوماً كذلك... إلاّ في موقفه النظريّ المعادي لممارساتٍ غير متسامحة معيّنةٍ قامَ بها نظامُ الرأسمالِ والأقليّةِ البيضاء. وأنا مازلت أذكر، أثناء سنوات النفي، كيف بُذل كلُّ مجهودٍ ممكنٍ في المحافل الدولية لتقويض شرعيّة «المؤتمر القومي الأفريقي»(١٣).

لنقارب الأمور مقاربةً أُخرى: لا يمكن التّصدي لميراث جنوبيّ أفريقيا المتمثّل في الظّلم واللامساواة إلاّ بمزيجٍ من عدّةِ حلولٍ اشتراكيّة. ومع ذلك فإنّ كلّ ألخياراتِ الاشتراكية البديلة قد سُحِقَتْ على يد التحالف «الموضوعي» بين حكومة الحزب الوطني [العنصري الحاكم سابقاً] والحزب الشيوعي في جنوبيّ افريقيا. لقد وضعتِ الحكومةُ [السابقة] كُلَّ اليساريين في سلّة «حمراء» واحدة: فإمّا المنفى، وإمّا السّجن؛ واستوثقَ الشيوعيون الحريصون على الاحتفاظ بهيمنتهم الايديولوجيّة ـ وهم بذلك أكثرُ خوفاً من الاشتراكية أو الديموقراطية الاجتماعية ممّا هم خائفون مِن الفاشية! ـ مِن أنّ مدارسَ الفكر التحويلي [التثويري] المُثْرِيةَ كانت تُساقُ إلى النسيان.

ثمّة مفارقةٌ لاذعة مؤدّاها أنّه ينبغي، من أجل بناء الوحدة الوطنية، تعزيزُ كُلِّ التحالفات، وأنّ هناك ـ في الوقت نفسه ـ علاقاتٍ معيّنة تحتاجُ إلى توضيح. ماذا تراك ستفعل إزاء الانقلاب الرّائع(١٤) الذي قام به «الحزب الشيوعي لجنوبيّ أفريقيا» بنجاحه في تنصيب عددٍ كبير من محازبيه الصُّلبين في الحيِّزات العليا في السُّلطة، بالرغم من قاعدته الشعبيّة الهزيلة؟ أم تراك تنوي خنقهم بعناقٍ أخويّ، كما سبق لـ [الرئيس الفرنسي السابق فرانسوا] ميتران أن فَعَل في أوائل الثمانينات؟

علينا أن نَستظهر المحرّمات [التابُوات]، وأن نحترم مبادئ عقدنا الجديد غَيْرَ القابلةِ للتفاوض: لا تمييز عنصرياً بعد اليوم على الإطلاق، لا تسلُّط ولا فساد ولا استغلال (وعلى العمّال أن يتعلّموا كيف يستخدمون أربابَ عملهم بذكاء!)، لا احتواءَ كلبيّاً، ولا برامج خفيّة. علينا أن نكتسب وَأن نرعى العاداتِ الصحيحةَ: وهي التسامحُ، والابتكارُ، والاكتفاءُ الذاتي، واحتـــرامُ حقّ النّاس في أن يمارسوا ثقافاتِهم(١٥) إلى أقصى الحدود. هذه العادات يجب أن تُقَدَّسَ في التطبيق العمليّ. وعليْك أنتَ [يا نلسون مانديلا] أن تضبط ضبطاً مُحْكَماً أجهزَةَ الأمن المُدْمَجة [من جميع الفرقاء المتصارعين] التي نَصّبتْ عدوّاً مشتركاً لها: هو شعبُ جنوبيّ أفريقيا!(١٦)

يلزمنا أن نحقّق نجاحات يُمكن قياسها أخلاقياً. فأمّا إذا اتّبعنا المسلكَ الجزائريّ ـ مَسْلكَ حَرَكةِ تحريرٍ تدفع الى السلطة بقيادةٍ كان معظمُ أفرادها في المنفى، ثم راحتْ تنهب الدولة في عربدة فسادٍ

(١١) تُشتهر جنوبيُ افريقيا بمناجمها وذهبها وَمَاسها.

(١٢) تأسّس هذا المؤتمر A. N. C. عام ١٩١٢، ولعلّه أقدم حزب في القارة الافريقيّة جمعاء. وصارَ نلسون مانديلا واحداً من قياديه منذ الخمسينات. وهو حزب ذو ايديولوجيّة قومية افريقيّة.

(١٣) تأسّس هذا المؤتمر P.A.C. في نهاية الخمسينات، ردّةَ فعلٍ على المؤتمر الوطني الأفريقي A.N.C؛ وهو أشدّ تطرفاً في مواقفه القوميّة من الحزب الأخير.

(١٤) وهنا إردافٌ خُلفيّ آخر؛ راجع هامش ٨.

(١٥) الثقافات (cultures) تعني هنا: قيمَ المجموعات أو المنجمعاتِ القومية والعِرقيّة والدينية (داخل جنوبيّ أفريقيا)، وممارساتِها، وأهدافَها المشتركة.

(١٦) مِن الجدير ذكره أنّ المذابح التي جرت في أقليم كوازولو/ ناتال دلّلتْ على استمرار التعاون الذي كان سائداً أيام الحكم العنصري البغيض بين جهاز الدولة العنصري القامع وقوات الإينكاثا (أعداء المؤتمر الوطني الأفريقي، ويراسها «بوثيلايزي»).

مطوّلة (وبعضُ وزرائك توّاقون[١٧]، منذ الآن، إلى مثل هذا!) ـ فإنّنا سنحصد بالتأكيد الطاقةَ التدميرية الدوّاميّةَ عينَها؛ فعاجلاً أم آجلاً، سينهض جيلٌ مِن الأصوليّين يَقِيئُون المُثُلَ التي سبق أن حملتها حركةُ التّحْرير الوطني، وتحديداً: مُثُلَ التسامح، والتمدُّن، والتحرّر [أو الانعتاق]، والتعليم لكلّ فئات النّاس، وفَصْل السُّلُطات، والتنمية الوطنية. والفارق الوحيد، هو أنّ نُسْختنا [بخلاف النسخة الجزائرية] ستكون مِن النوع العنصريّ، بدلاً مِن النّوع المتعصِّب دينيّاً.

ولهذا السبب، أيها الرئيس ماديبا[١٨]، أقترحُ أن تكونَ واحدةً من أولويّاتك عَقْدُ مؤتمر وطنيّ عام للوفاق. ولكي يبلغ هذا المؤتمرُ النتائجَ المرجوّةَ، فإنّ عليه أنْ يُطبِّق منطقةً منطقةً ومقاطَعَةً مقاطَعَةً، وفي كُلّ المهن والمدارس وقاعات المحاضرات ووسائل الإعلام. فهذا [المؤتمر الوطني] ليس امتيازاً مقصوراً على السياسيين ولا هو ملعَبُهم الخاصّ؛ بل هو قاعدةٌ للمستقبل، تنهض من مجموع المجتمع المدنيّ، مِن أجل [وضع] الدستور الحاسم [والنهائي] الذي فُوِّضَ إلى البرلمانِ المنتَخَبِ حديثاً وَضْعُ مُسوَّدتِه.

دعنا لا نتوقف الآن. فثمّة الكثيرُ [المُنْجَزُ] ممّا هو مدعاةٌ للفخر. هل تراك تُدرك وَقْعَ نموذَجِكَ على أفريقيا؟ أنت لم تزحف [تملُّقاً للحكم العنصري] ولا حاولتَ أن تُسمِّن نفسك. ولقد اندلقتْ ألسنةٌ أكثر فأكثر في داكار ونيروبي، بفضل الدّرس الموضوعي في الديموقراطية لـ«دي كليرك» يتخلّى عن سلطته ويبقى حيّاً ليخبر حكايةَ ما جرى! وما أشدّ تشجُّع الآخرين إنْ أنتَ حافظتَ على مقاييس الشَّفّافية، كأن تعمد مثلاً إلى نَشْرِ مداخيلك [على الملإ][١٩]. إنّ بمقدور أفريقيا الآن أن ترى أنّ إساءة استخدام السلطة ليسْ أمراً محتوماً، وأنّ ثمة إمكانيةً للحياةِ تتجاوز خسارةَ المنصب السياسي[٢٠]. بل قد يكون هناك مجالٌ لقِيام معارضةٍ فعّالة! أرجوك أن تبقى مرتدّاً، بأنْ ترينا أنْ ليسَ محتوماً أن يأخذَ الرابحُ (بل أن يفترس) كُلَّ شيء!

يجب أن أخبرك بمفارقة خِتاميّةٍ خاصّة، ولو أنّها تناقض ما قد كتبتُه حتى الآن. فبعد أكثر من ثلاثين عاماً، أشعر اليوم للمرة الأولى بأنني قد تحرَّرتُ حقاً مِنَ المسؤولية المدرَكة [الواعية] وَمِن الإغراء الذّاتيّ الإلْزام: [مسؤوليةٍ وإغراء] أن أجهر بموقف سياسي. حُرٌّ أنا، حُرٌّ أخيراً، في ألاّ أتحمّل هوّيتي الجنوبأفريقيّة عِبئاً أوْ عيباً أوْ وظيفةً أوْ حتّى مثالاً؛ حُرٌّ أخيراً في أن أكون رساماً حرّاً للمجازات ومخربِشاً للألوان!

أرجوك أن تبقى مرتدّاً، بأن ترينا أنْ ليس محتوماً أن يفترس الرابحُ كلَّ شيء!

مِن الآن فصاعداً سيكون إسهامي (وإسهامُ أضْرابي) هو: أن يكون ولاؤنا معارضةً يقظة،... وأن يستند كُلُّ تعاونٍ نقدِّمه للمشروع الكبير ـ مشروع بناء افريقيا جنوبيةٍ جديرةٍ بالتطابق مع الحقائق الجديدةِ النابعة مِن الأحلام ومن الكفاح ـ إلى النقد المبدئيّ... وأنْ يَكون العون الذي نستطيع أن نقدِّمه إليك، بوصفك أباً للأمّة، هو أن نعاملك كسياسي بعيد عن الاحتراف يُجازِف بالفساد الدنيوي [العادي] المرتبطِ بالسلطة والمتأصّل في جميع أنواع السياسة... وأن نُعارضك مِن خلال [مؤسسات] المجتمع المدني... وأن نسلِّط عيْناً حذرةً جداً على الجراء وكلاب الحزب القدامى... وأن نقبض على حريّة أن نكون خلاّقين، كُلٌّ بلغته أو بلغتها القوميّة الأمّ، فخورين أشدّ الفخر باختلافاتنا وبما نشترك بِهِ سواءً بسواء.

برايتن برايتنباخ

---

(١٧) في عاميّتنا اللبنانية تعبير طريف. نقول «فلان ضرسُهُ طيِّب»، أي يحب الطعام ويُولَعُ بِهِ. وما أقربَ هذا التعبير لفظاً ومعنىً إلى التعبير الإنكليزي الذي يستخدمه برايتنباخ هنا في معرض حديثه عن وزراء مانديلا: "They already have this sweet tooth"! وربّما كان قول العامة «نفسُ فلانٍ خضراء» أقربُ من التعبير اللبناني السابق إلى عبارة برايتنباخ.

(١٨) ماديبا = الأب. وغنيٌ عن البيان أنّ هذا اللقب شائع في كثير من دول العالم الثالث.

(١٩) راجت، في السنتيْن الماضيتين، شائعاتٌ مفادها أنّ مانديلا قد أصبح واحداً من أغنى أغنياء البلاد!

(٢٠) الإشارة واضحة إلى دي كليرك.